اشعار من النوبة

سرب البلشون

للشعراء : زكي مراد ، محمد خليل قاسم ، عبد الدايم طه ، ابراهيم شعراوي ، محمود شندي

بلاد النوبة او «تاستي» اي بلاد حاملي الاقواس ـ كما كانت تسمى قديما ـ تطلق على المنطقة التي تقع جنوب مدينة أسوان ممتدة الى ما بعد الشلال او الجندل الثالث .. «والنوبيون (١) قد عاشوا في مستوى حضاري مطابق للمستوى الذي وصل اليه المصري في عصور ما قبل التاريخ .. كما ان اهل النوبة ينتمون الى نفس السلالة التي ينتمي اليها المصريون القدماء» .. ومن المعروف ان الاسرة «الخامسة والعشرين» التي حكمت مصر في القرن الثامن قبل الميلاد، والتي كان من ملوكها الملك «طهارق» أسرة نوبية، ولقد اشتهر النوبيون وشاركهم في ذلك اهل الصعيد بكثرة ما قاموا به من ثورات ضد الاحتلال الروماني .. واستطاعت الملكة النوبية «كانداكي» ان ترغم الحاكم الروماني «بترونيوس» على ان يصدر قرارا يعفى فيه اهل النوبة من دفع الجزية .. والنوبيون يتكونون من عدة قبائل ، كل واحدة منها تقيم في موقع خاص بها ، ومن ابرز هذه القبائل أو الجماعات «الكنوز» و «القديجة» و «السكوت» و المحسي و العليقات وهم عرب هاجروا من الحجاز الى مصر واستقروا في بلاد النوبة ابتداء من القرن الثامن عشر ، وللنوبيين لغتهم الخاصة التي يحرصون عليها ، ويعتزون بها ، والتي تمتاز بايقاعها وغنائيتها ، ولا يزال يكتب بها بعض الادباء اعمالهم كالشاعر عبد الله محمود بشير ، وحسين روم ، ومحمود شندي وغيرهم .. ولقد استهدف النوبيون لعدد من الهجرات متجهين الى الشمال حينا والى الجنوب حينا اخر ولقد ازدادت هجراتهم بعد انشاء «خزان أسوان» حوالي سنة ١٩٠٢ م ، وتعليته المرة بعد الاخرى .. ففي كل تعلية كانوا يفقدون ارضا جديدة من الشريط الاخضر الضيق الذي يعيشون عليه بمحاذاة النيل ... ثم انتقلوا عنها الى ارض النوبة الجديدة بعد ان تقرر انشاء السد العالي هذا العمل العظيم الذي ساعدنا في انشائه الاتحاد السوفياتي الصديق» .. انتقلوا عنها تاركين فيها رفات اجدادهم وسجلا حافلا من ماضيهم وامجادهم ، وتلك الذكريات الجميلة .. التي انتقل بها النوبي في صدره ... والتي تغنى بها الشعراء في اغانيهم، وقصائدهم ... وسنرى صورة كل ذلك .. في هذه الباقة الشعرية «سرب البلشون» التي نتحدث عنها الان .. والتي اشترك فيها باعمالهم الشعراء : زكي مراد ، ومحمد خليل قاسم ، وعبد الدايم طه ، وابراهيم شعراوي ، ومحمود شندي ... معبرا كل منهم من خلال رؤيته الخاصة عن هذا الحدث الكبير .. وأول ما يطالعنا من قصائد هذه الباقة الشعرية ذات الالحان المنسجمة .. قصيدة سرب «البلشون» يطير شمالا للشاعر عبد الدايم ... وهي تصور هجرة النوبيين الجماعية لارضهم .. وقد سجل فيها تلك اللحظة الثرية ، والمشحونة بالحركة والانفعال .. لقد بدأوا يهاجرون عنها ، ولم يتركوا خلفهم سوى الكلاب الضالة والذئاب العاوية .. والغربان التي تنعب .. والدور الفاغرة الافواه .. والشاعر يسير متلكئا في مؤخرة القوم «تلفه عاصفة من الذكريات .. والاشواق .. يود لو ترك وحيدا في هذا الصمت الجليل .. يسترجع خيط ذكريات طفولته العذب.. وشبابه المراح ولكنه عندما يقترب مع السائرين الى المرفأ .. الذي هو اول طريق الهجرة .. تهب على صدره نسمة «خرجت من حمام نهري» فتنعشه .. وتبدد او تلطف من اشجان نفسه .. فيغذ السير.. بل يتقدم كل من سبقوه الى المرفأ .. متجها الى ارض الشمال مع «سرب البلشون» .. والقصيدة مشحونة بالتوتر النفسي .. التوتر الذي يعانيه الجذر حينما يحس بأنه يفارق ترتبه .. وبكلمات سريعة .. وبترديده لهذه العبارة «اشدد خطوك صوب المرفأ ... لا تتلكأ .. »

وباختياره لبعض الصور الاقليمية : كالسحالي .. والضفادع.. وحبال الشوك .. والاطفال الذين يتمرغون ويصخبون على شط النيل ، استطاع ان ينقلنا الشاعر معه الى اللحظة التي احتجزها من تيار الزمن .. واودعها قصيدته ... ولقد نجح الشاعر في الانتقال من جو الكآبة ، والتشبث بالماضي .. الى جو الغد الاخضر الباسم.. دون ان يتردى في الافتعال حين جعل الطبيعة تتغير فتتغير معها نفسيته .. كما ان هجرة «طيور البلشون» الى الشمال .. ما هي الا رمز او ايحاء بأن كل ما هو عزيز عليه سوف ينتقل معه ...

وفي قصيدة «في انتظار الطوفان» نلمس الحب العميق للقرية.. وبخاصة حين يسترجع ذكريات طفولته وشبابه فيها .. لقد كانت القرية كل عالمه وهو طفل فجبالها : ..... كعماليق يتيهون قوة وشبابا ...

يرموا بالحياة فاقتعدوا الأفق ، وراحوا يدخنون السحابا .

والبحر مخدع الحوريات .. والاسرار الخفية .. يفد اليه الاطفال ، وكثيرا ما يلقون بالاحجار في مياهه ليحطموا رتابة سير الموجات .. والشاعر يتساءل : هل القرية ما زال يغلفها الصمت ، والفتيات الصغيرات ما زلن جرد الصدور او ان مياه الشباب «مرت عليها فارتوت ، واشرأبت الانداء ..» والزهور التي رسمها وهو طفل على جدران المنزل .. هل لا تزال ؟ أم محت ملامحها الايدي من بعده وهو اذ يسترجع طفولته في وجدانه يعيد حياتها مرة ثانية .. بل يرجع هو طفلا .. يضيق بالاطفال الذين مسحوا رسومه .. ويتشفى منهم حين يدرك ان النهر سوف يمحو رسومهم كما محوا هم رسومه... واذا كانت هذه الذكريات شيئا عزيزا على طفولته ، وقد ضحى بها.. فاننا لا نحس باية غرابة حين نراه ينتقل منها الى الحديث عن «السد» واستعداد النوبى لتحمل كل التضحيات في سبيل انشائه :

سنضحي بأمسنا ، وأراضينا ... وما فوقها ، وبالذكريات
سنضحي الجميع ايها الخزان ... الى الغد الكريم السمات
سنضحي ان كنت للشعب ... فانا لا نكره التضحيات

ويختم القصيدة بهتفة خطابية .. لم تكن القصيدة في حاجة اليها هي : «عشت يا خزان» . كما ان بعض ابياتها وقع بها خلل موسيقي مثل : «واذا ما سحبت عيني الى ما تحت رجلي حيث تلقى النهرا» اما قصيدته «قالوا» التي يشيد فيها بقريته دهميت ، والتي يرى ان في بؤسها الف كنز ، وتحت اساها العميق الجمال ، وقد علمه صخرها الصلابة ، وشواديفها الشعر .. فهي قصيدة غير ناضجة .. ربما يكون الشاعر كتبها في اوليات حياته الشعرية ...

ومن قصائده الجيدة قصيدة «طردوك» .. وهي قصة «طباخ» نوبي انكسر منه طبق اثناء غسله فطردته صاحبة البيت ، فخرج حزينا مهموما لما ينتظره من تشرد .. وقد اخذ يسترجع شريط حياته في هذا البيت .. خاصة حينما اخذ ابنه الطفل معه .. فتمنى الطفل لو كان لهم مثل هذا البيت الانيق المترف .. وعلى المنيل استرد العامل هدوءه ، وقرر ان يعود الى المنزل ليخبر زوجته في هدوء بما حدث ... والشاعر وفق في رسم الصورة ... من مختلف زواياها ، ففي البدء يغني «بشير» الطباخ مازجا غناءه بوقوقة الماء على الاطباق، ووشوشة النار تحت القدور ، وولولة الطعام .. ومع انكسار الطبق تفر افواحه وأغانيه ، ويواجه بشتائم السيدة والسيد «الذي يلعن

(١) النوبة للدكتور عبد المنعم ابو بكر .

من خلفه» وهو يرسم صورة ساخرة للسيد الذي يرفع «منخريه» والمدام التي تدب في وجهها نذر المعركة ، وفي صخبها لهجة مضحكة.. فهي اجنبية الوجه واللسان ـ كما يقول المتنبي في بعض قصائده ، و«جوني» ابنها الصغير يمرح على ظهر كلب كبير .. كما يصور احساساته .. وكيف انه كالحذاء القديم يخلع من قدم لتلبسه قدم اخرى .. وكيف خرج تصفع قدماه الطريق وعلى النهر يتصور ما سيحدث من انزعاج لزوجته ينعكس على نفس الطفل الصغير ـ حينما يخبرها بحقيقة ما حدث .. ويستطرد مع ذكرياته حين ذهب بابنه الى القصر ؟ وماذا رأى ؟ وماذا قال ؟ وينهيها بالعودة الى بيته .. وقد هدأت قليلا ثورته ، فقرر ان يخبر زوجته في هدوء ويتعقل حتى لا ينزعج ابنه الصغير ... والصورة التي رسمها الشاعر متلاحمة الاجزاء ، لاهثة تكثر فيها الصور المتلئة بالانفعال والثورة كقوله : «وخطوك صفع يدق الطريق» .. او «الى النهر سرّ بقطيع الهموم ، لترعاه في كلأ من سكون » فدارت انامله الخشبية تزحف مقرورة في طبق» ولكنه فرّ كالنجم يهوي ، وفرت اغانيك لما انطلق ، وفي القصيدة بعض التعبيرات العامية التي ساعدت في تصوير ارضية الحدث مثل: يلعن من خلفوك .. تمنيت لو لم يلدك ابوك «وجرجرة الخيش» وتأخذ عليه اقحام افكار كبيرة على لسان ابنه الصغير حين رأى القصر .. كقوله :

وأي الذنوب ابي قد جنينا لنحرم من عزّه والهنا

ينام الخواجة طي الحرير... ونحن على خشب كالسرير.. الخ..

فاذا ما تركنا الشاعر عبد الدايم طالعنا وجه الشاعر زكي مراد في عدد من قصائده .. وهو شاعر قادر على ان يمزج احساساته الذاتية بنظرته الموضوعية وقصيدته «لا تفزعي ..» يكتبها في ليلة عيد ميلاده ، وقد كان بعيدا عن والدته التي يخاطبها بها .. بعيدا ، لانه اراد السلم الاخضر ، والخبز الابيض النير للجماهير العاملة، ويدعو أمه في نهاية القصيدة ان تردد كعادتها :

لا بد من فرج قريب ... ويعود لي ولدي الحبيب

ويعود كل الغائبين ... الى ذويهم ساليين ..

«يا ابي» وكما خاطب والدته وهو متغرب عام ١٩٥٨ م خاطب والده عام ١٩٥٣ في غربة اخرى وما اكثر ما تغرب زكي مراد ورفاقه في درب الكفاح لقد كان يتمنى ان يعود الى والده مع بشائر النصر.. فيتلقاه والده مفاخرا به .. قائلا :

لقد كنت احمل الفجر بين ضلوعي .. وها هو قد انتشر .. حينئذ يقدم له الابن هديته التي حفيت قدماه ، ودميت اصابع يديه في سبيل الحصول عليها .. يقدم له باقة من الانتصارات ، والانجازات الثورية « وطن حر ، ونفس عالية ، ووجوه مشرقة .. واياد بانية .. واخضرار ، وازدهار في قرانا النائية .. » انه يحلم هذه الاحلام الخضراء والقيود لم تزل تحز في قدميه ، ورسغيه ..

«حنين» .. وفي قصيدته حنين يبدد القمر بضوئه النقي ما في قلب الشاعر من كآبة ويحمله على اشعته الفضية الى سنين مضت.. حين كان صغيرا يعيش في القرية .. يجوس بين نخيلها .. ويلتقي بالرجال يتحدثون دون ملل ، او يقتلون الحبال ، والبنت السمراء (والوصف بالسمرة وصف ملازم للشعراء النوبيين ـ بل للافريقيين عامة) تختال وهي تغني اغنية رقيقة يذوب الشاعر في انغامها ويواصل سيره في دروب الذكريات المخضلة بالحنين ، فيتساءل : أيمكن ان يرى أباه الشيخ وأمه التي منحته الحياة ؟ وينهيها بهذه الدفقة من الشوق والحنين :

فلتسرعي ..

يا ساق ان الشوق يلهب أضلعي .

والملاحظ ان القصائد التي كتبها الشاعر بعد العام السابع والخمسين اكثر تطورا وأدق صنعة اذ فيها يكتفي باللمحة اليسيرة، والاشارة التي تشف عن نظرته للحياة دون جلجلة ..

ثنائية شعرية : اما ثنائية الشعرية فهي مؤلفة من جزئين .. جزء بعنوان «النفترق» وفيه يسجل لحظة حافلة بالجلال والجمال والصفاء «كأنها حورية من السماء» .. تلك اللحظة التي التقى فيها بقريته بعد غيبة عشرة اعوام ... وفي نفس اللحظة دعي الى فراقها مع المهاجرين ، وهنا تتزاحم الخواطر ، وتتشابك الذكريات وتتنوع وتمتزج الاحساسات المتناقضة التي تتولد من لقاء يتم .. وينساب الشاعر مع تيار ذكرياته .. البيت الذي نشأ فيه .. والقلع والفلوكة .. والمطار المنغم الاضلاع والقصيدة كلها مناجاة للقرية التي يودعها في لحظة اللقاء :

لحيظة مريرة اللقاء والوداع

قد جئت بعد هذه السنين ـ أفترق

والجزء الثاني : بعنوان «فوق السد» والشاعر ـ فيما اعتقد ـ قد نظمه بعد ان عاد من قريته ، واسترد اتزانه وهدوء نفسه .. وفيه يخاطب السد ، بادئا المقطع بقوله «لا حزن .. لا شيء في الحياة اسمه المحن ..» وكأنه يريد بذلك ان يجتث الاحزان التي فجرها الم الفراق .. لقد تخلصت نفسه من اشجانها الرومانسية بعد ان عاشت لحظات بقرب الرجال وهم يهدمون الجبل ، ويقيمون هيكل السد العظيم وما أروع قوله :

لا شيء يقتل الملل ..

ويزرع الحنان والعناق والقبل

كلحظة واحدة من العمل ..

وهنا يحق لي ان اتساءل : أمن الممكن لشاعر كزكي مراد ان يكتفي بالمقطع الاول الباكي دون ان يلحق به المقطع الثاني الذي يصور قوة الانسان وقدرته ربما يقول ناقد ضبابي كالاستاذ غالي شكري «ان في اضافة المقطع الثاني زجا وتدخلا عقليا من الشاعر في عمله الفني .. وهذا وهم ، فالشاعر ذو النظرة المتكاملة للكون والحياة لا يدع عمله الفني يتخذ مداره العفوي وانما يحاول ان يعدل هو من مساره ، فالعمل الفني نتاج فكرة وعاطفة معا .

اغنية سمراء : وفيها يتحدث عن ابنته صفاء ، ومن خلال حديثه يتطرق لذكر العذابات التي عاناها جيلنا :

كم حمل جيلي من أثقال ...

كتل الأغلال

كانت تثقل اذرعنا وتحاصرنا

وصبرنا ..

والصبر .. ذراعاه حبال

وسلاسل تأكل في الأجيال

وصبرنا جيلا بعد الجيل

والصبر حصار ، ومدافع ،

وخيول تقتحم الجامع

ومع الصبر تسيل الدماء التي تروي الزروع .. واخيرا استطاع الصبر ، والتساند ان يحقق ارتفاع الجباه ..

واذا بالصبر سدود ، ومياه

والخضرة تزهر في الصحراء

والغيمة دخان مصانع

وصفاء تبسم للدنيا .. وألوف نبت مثل صفاء ..

فاذا ما انتقلنا الى الشاعر الصديق ابراهيم شعراوي ـ الذي ارتاد مع شعراء هذا الجيل ـ دروب الشعر الجديد ، وصاغ منها اجمل ترنيماته ، وجدناه في هذه القصائد يترنم ببناء السد الذي يرى انه سيغير وجه ارض بلاده التي ذاقت الهوان على يد الاقطاع.. وذيوله ..

فأنا بالأمس جربت الأسى ... بينما الاقطاع قد مد جذوره

وانتظرت الغد .. قد جاء غدي ... انني في ناصر أبصر نوره

فبلادي غـادة فاتنـة نسجت من شعرها ألف ضفيرة
وقفت تستقبل الفجر الذي نحن فيه ـ عشت يا ارضي الكبيرة

ويمجد مع عبد الدايم ارض النوبة ، ارض الصخر والجلاميد التي اكتسب منها ابناء النوبة الاباء ، كما تعلموا من نيلها السخي الكرم ، ومن أطيارها التي لا تكف عن التغريد اجمل الاغنيات ... ويشير في قصيدته الى تعلية خزان أسوان .. التي تكررت .. فتكرر معها اغراق الارض النوبية ، وتبع ذلك هجرة النوبي الذي لم يكن يحمل معه سوى مأساته بين ضلوعه ويختمها بهتفة يدعو فيها الى انقاذ آثار النوبة الخالدة ... وفي القصيدة عاطفة ملتهبة ، واحساس متقد ، كما تزدحم بالافكار والموضوعات التي يكفي موضوع منها ان يكون هيكلا لقصيدة ناجحة ...

وفي قصيدته «وداع أم» يكشف الستار عن مأساة النوبي في القاهرة ، مدينة العاطلين بالوراثة آنذاك والمشردين .. ولقد كان «شعراوي» في هذه القصيدة شجاعا مع نفسه ، وجريئا حين عبر بصدق عن هذا الواقع المر ... فالنوبي يهجر ارضه مرغما لان النيل قد اغرقها .. وبمجرد ان يرى المدينة يلفه الدوار «فالمدينة كالخضم» ويحس بالضياع ... فالسادة ينزعون عن كل نوبي اسمه .. ليطلقوا عليه «عثمان العبد» .. ثم يعتصرون كل ما فيه من حياة ... ولننصت لابراهيم شعراوي وهو يعرض هذه المأساة بصدق . فيقول :

ارضي التي غرقت وظل أنينها يدمي ، ويصمي
فأحس نارا في الضلوع ورعشة تجتاح جسمي
هي رعشة المحموم يبعث بالشكاة .. الى أصم
لم يبق لي غير الضياع فجئت نحو المدن ـ رغمي
ونظرت حولي في ذهو ل والمدينة كالخضم
كل الذي فيها غريب عن تصاويري ، وفهمي
هيا نعد يا ام ما هذي بلاد الحر ـ أمي
حسبي مسحت الارض حتى ذوّب الانهاك لحمي
وجميعنا عثمان عبد كبيرهم ـ أنسيت اسمي ..

وملامح تلك الحياة الذليلة القاسية التي تشعرنا بالخجل ،ونرفع في وجوهنا اصبع الاتهام .. تنتشر خلال قصائده ، وقصائد زملائه النوبيين ... كصورة السيدة التي تزور ارض النوبة فتسخر من اهلها ، وتضحك حين تسمع صخبهم وعويلهم ، ويعجبها قط جميل فتأخذه معها الى القاهرة .. وصورة الأب النوبي الذي يعرض على سيده ان يترك له ابنه يعلمه في المدرسة ، ويعد له غدا اجمل .. فيرد عليه السيد : لقد اعددت طفلك «ليحرس بابي ويرعى الكلاب».. وصورة الطفل النوبي الصغير الذي يقف على باب المصعد كالدمية يحيي الكبار لدى المصعد .. وسيده فخره بالكلاب ، وبالجاه والخادم الاسود ..

وحين يضيق الشاعر بهذا الواقع المرير يلوذ بالحلم

هيا بنا لنحلما هنا هناك حيثما
سيصبح الكون غدا حدائقا ، وأنغما

فالكثير من حقائق الوجود .. كانت أحلاما وأشواقا لمدى الشعراء ..

فقد حلمنا مرة حين بنينا الهرما
أنا بذرت نرجسا فكيف أجني الحصرما

وقد لا نعجب اذا وجدنا اغلب قصائد شعراوي في هذه المجموعة الشعرية تمجيدا للثورة وانتصاراتها الكبيرة فشعراوي يرى ان «الثورة» قد ثارت له ، ولقومه من هؤلاء الاثرياء المتغطرسين ..

وشعراوي .. يسجل ان النوبي رغم احساسه بالغربة في هذه المدينة الصاخبة فانه لا يلبث ان يندمج فيها حين يحس انه ليس الوحيد في هذا الصراع .. فيلتحم مع الجماهير الكافحة :

لكنني رأيت في الصراع ..
في الصائحين «يسقط الملك»
في جسر عباس ، وفي ميدان عابدين
في كل صرخة من اجل موطني الكبير
أني ولدت هاهنا
ولدت في الصراع .. ولدت للصراع

ننتقل بعد ذلك لنعيش لحظات «مع القصائد القليلة» للشاعر المناضل المرحوم خليل قاسم الذي عبر بكفاحه ونضاله اكثر مما عبر بكلماته .. والأمل الاخضر يطالعنا من خلال قصيدته «اخي لا تبك» التي نظمها عام ١٩٤٦ عام الثورات الجماهيرية والطلابية ، عام المواجهة بين الشعب وجلاديه من استعماريين وحكام رجعيين .. فيقول :

اخي لا تبك ان الصبح قد اقبل
سينعم بالشعاع الصخر والجندل ..

كما نلمس الاصرار رغم ما يلقاه المناضلون من سجن وتشريد ..

اذا كنا نعيش اليوم مسجونا ، وسجانا
فسوف نفجر النيران حتى يحرق السجن
وسوف نفجر الآهات ، والانات بركانا
ونرجع نحن أبطالا ..

وقصيدته «رسالة من بعيد» التي نظمها عام ١٩٥٦ تعبر عن روح الانسان ... حين يعتريه الضعف البشري ، فيحتاج الى لمسة من الحنان .. تغسل ما في اعماقه من اسى ... فالشاعر يمتلىء بالبهجة لان امه لم تنسه في غمرة الحياة ... وها هي تسأل عنه في رسالتها التي جاءت من بعيد ..

يا رسالة
حملت اذكى تحية
وروتني بالاحاسيس الغنية
وجلت له ذكر ايامي العتية
ذوبي دفئت في هذي الحنايا
طهريها من جراح وشظايا ..
أنا .. امي لم تزل قلبا حنونا
لم تزل تسأل عني
لم تزل تشكو ، وترناد الظنونا ...

ويطالعنا بعد ذلك وجه شاعر صديق هو الشاعر محمود شندي.. في قصيدته «اللحن الباكي» وهي قصيدة حزينة رمادية يتمطى فيها الليل ، ويكسوها الغاب ، وتتمدد فيها الغربة ، والكآبة .. لان الارض قد صارت غربانا ، وديدانا ، واطلالا .. والذكريات الجميلة فيها قد طوتها الايام ... فلم تعد سوى أطياف في معهد نجوى الشاعر، ويختمها بهذا المقطع الذي هو صورة لجو القصيدة الكئيب :

يا طيرنا الشادي ماتت روابينا
غنّ لنا .. غنّ ففناك يروينا
والليل شلال بالحزن يطوينا
غنّ لتسكرنا بحنين ماضينا

لقد حاصر جو المأساة الكئيب ـ الشاعر ، فلم يستطع ان يمزق حجبه الكثيفة ليرى الجانب المشرق الوضاء . فمن القديم يولد الجديد ، ومن غابات الليل يبزغ الفجر ..

وللشاعر محمود شندي بعض القصائد المترجمة ايضا في هذا الديوان الصغير .. واحدة منها من نظم الشاعر عبد الله محمود بشير ، والاخريات قصائد من الفولكلور الشعبي وقد اصاب في ترجمتها نثرا حتى لا يضيق الثوب العروضي .. باستيعاب تجارب الشاعر النوبي .. وقصيدة «أغنية الى قمري» التي نظمها عبد الله بشير باللغة النوبية ، تشبه الى حد كبير القصائد الشعبية فهي تستمد صورها والكثير من تعبيراتها وافكارها الجزئية من الموروث الشعبي الذي منحها نكهة خاصة ، كما استطاع فيها الشاعر ان يمزج بين الحاضر والماضي بعد الفائه الحاجز الزمني بينهما ... وهو لم

ينسق مع الماضي المورق الجذاب متناسيا التطلع الى المستقبل الزاهر .. وفكرة الشاعر فكرة جديدة : فالطائر القمري يطير الى الجنوب ـ كعادته ـ وقرب موطن الحبيبة ، وعلى شجرة من اشجار السنط العاتية يطلق صوته الحنون «كوكوكو .. كوكوكو ..» ثم يواصل سيره مع النسيم .. والشاعر يهيب به ان يلقي نظرة الى منزل الحبيبة السمراء ، ذات العيون العسلية .. فسوف يجد الكآبة تلف هذا المكان ، لان الحبيبة التي كانت تنتظر الطائر ، وتقول له : حينما تسمع صوته «ماذا نحمل لنا من البشرى .. ايها القمري السعيد ؟..» قد تركت موطنها وهاجرت الى مكان بعيد .. الى ارض المهجر الجديد ..» عندئذ على الطائر ان يفرد جناحيه ، ويطير نحو الشمال متلمسا مكانها .. واذا لم يجد هناك شجرا او نخيلا يستريح فوق اغصانه بعد رحلته المضنية ، فما عليه الا ان يطير الى منزل الحبيبة التي تعرفه منذ زمن بعيد ... وهناك يردد الحانه التي تسرها دائما .. قائلا لها : ان في ارضكم الجديدة سوف تبزغ شمس السعادة .. فترقبوا بصبر ، وثقة .. » ..

اما القصائد الشعبية فهي سجل لكثير من الاساطير النوبية .. كما انها سجل لحياتهم ، وآمالهم واحلامهم .. فالصياد «علوب» يمخر البحر كالنسر الجبار ناشرا الزهو والاعجاب .. متنقلا بين القرى النوبية نستقبله الفتيات بالغناء ، والاطفال الذين يقفزون كالضفادع على الشاطىء او يصيحون كأسراب التماسيح الصغيرة يلوحون له بايديهم فرحين «لأن علوب دائما يصطاد التماسيح التي تخيفهم .. ويجرها خلف زورقه كالسمك المستسلم مرددا بحنجرته القوية « اغنية الانتصار .. » » .

ان «علوب» يمثل في هذه الاسطورة الشعرية القوة ، ومواجهة الشر الذي يمثله التمساح الذي يهدد الاطفال .... اما قصيدة «التاجر الوغد» الذي يستغل حاجة الناس لانقطاع المدد الذي يجيئهم من العاملين من ابنائهم بالقاهرة فيسوق عنزاتهم رهنا لاقتراضهم منه بضعة قروش او شراء قطعة صابون بالأجل ، فهي صوت الاحتجاج الشعبي ضد هؤلاء الجشعين الذين يستغلون حاجته .... لذلك فان الشاعر الشعبي ينهي قصيدته بالدعاء على امثال هذا التاجر بان يمنع الله الريح عن مراكبهم حتى لا تتحرك او يكسر صاريها الزهو ليكف عن صياحه القبيح الذي يشبه نعيب الغربان المزعجة ..

وأخيرا ـ فلقد كان رائعا وعظيما من دار الكاتب العربي ـ ان تخرج هذه الباقة الشعرية التي هي ترجمة صادقة لما احدثه انشاء السد العالي العظيم في نفوس قطاع عريض من ابناء مصر .. في حين عجز الشعراء المتقولبون عن تسجيل ذلك الحدث الكبير ...

القاهرة — **كيلاني حسن سند**

الثورة الفلسطينية ابعادها وقضاياها

تأليف ناجي علوش

منشورات دار الطليعة ، بيروت

صدر للمناضل ناجي علوش كتاب « الثورة الفلسطينية ـ ابعادها وقضاياها » (1) والكتاب محاولة لفهم ـ وتحليل كافة قضايا الثورة الفلسطينية ـ السياسية ـ والعسكرية ـ والمصاعب التي تعترض

دار الطليعة ـ حزيران ١٩٧٠ ،

(1) الثورة الفلسطينية ، ابعادها وقضاياها ـ ناجي علوش ـ وحدة وتطور العمل الفدائي . وما هي الحلول للمشاكل والتناقضات القائمة ؟

وسنحاول هنا ان نحيط بجوانب مواضيع الكتاب بمزيد من التبسيط ، والتوضيح المشوب بالتساؤل حول القضايا المختلف عليها والذي يهمنا من ذلك . وفي هذه الفترة بالذات التركيز على الكلمة المعبرة ـ والمسؤولة ، وناجي علوش حينما يكتب فانه يكتب من موقع المسؤولية ، اذ انه من الطلائع الاولى في « حركة التحرير الوطني الفلسطيني » « فتح » والكتاب في حد ذاته يعبر عن وجهة نظر «فتح» حول القضايا الاساسية المطروحة على بساط البحث في الساحة الفلسطينية ..

والمواضيع الحساسة والرئيسية التي يناقشها الكاتب تتعلق « بالابعاد الطبقية للثورة الفلسطينية » وحول « بناء حزب البروليتاريا » وقضية « الجبهة الوطنية ـ الوحدة الوطنية » و« العلاقات مع الجماهير » ..

والاهمية الخاصة لهذه المواضيع وفي هذه الفترة بالذات . انها مواضيع حساسة ـ واساسية ومحور الخلافات الرئيسي في حركة المقاومة يتركز حول هذه المواضيع . حيث ان قيمة هذه المواضيع في انها نقطة الارتكاز من اجل الانطلاق نحو خط سياسي عسكري واحد داخل حركة المقاومة ..

ينطلق ناجي من « الابعاد الطبقية للثورة الفلسطينية » نحو الموضوع الاهم وهو « بناء الحزب البروليتاري » العربي ..

وفي تحليله « للابعاد الطبقية للثورة الفلسطينية » يبدأ باعطاء لمحة عامة حول اوضاع الشعب الفلسطيني المشرد ـ سائلا عن الابعاد الطبقية لحركة التحرر الوطني الفلسطيني ؟ . قائلا :

يجب « معرفة الطبقات ذات المصلحة الحقيقية في الثورة .ومعرفة قدرة كل منها على المساهمة فيها ، والدور الذي سنطيع ان تلعبه في مرحلة تاريخية معينة ، وهذا يجعلنا قادرين على تحديد الاستراتيجية المرحلية للثورة . استراتيجية مرحلة حركة التحرر الوطني » ..

وان هناك عاملين يحددان الابعاد الطبقية في بلادنا .

١ ـ « سيطرة الامبريالية على الدول والشعوب المختلفة مباشرة او بشكل غير مباشر .

٢ ـ احتلال البورجوازية الصغيرة ـ والفلاحين والعمال مكان الصدارة في حركة التحرر الوطني ، من خلال العمل الثوري فان الطبقات الطليعية تصعد قبل الاوان ـ والطبقات المتخلفة تتساقط خلال التصادم مع الاستعمار » .

« علما ان هناك في مرحلة تاريخية معينة اكثر من طبقة ثورية وهذا لا يمنع من القول ان البروليتاريا هي الطبقة الثورية حتى النهاية » .

لهذا فان الثورة المالية هي معركة تحرر وطني قومي ، لا طبقية فيها في الوقت الحاضر ـ الا انها ضد الطبقات التي ستقف ضدها».

ان الثورة المالية يجب ان تحدد بوضوح الطبقات . وان مايقوله علوش ينطبق الى حد ما على الشعب الفلسطيني ولكن ما يقوله لا ينطبق بشكل صحيح على الوضع العربي . لماذا ؟ لان الطبقات الرجعية والمرتبطة بالاستعمار لن تقف مكتوفة الايدي حيال الثورة القائمة بل ستقوم بكافة الاساليب من اجل ضرب الثورة . وكما بينت احداث الاردن ـ ولبنان . ولا يكفي ان نقول اننا ضد الطبقات التي ستقف ضد الثورة ـ وبل يجب اشعار هذه الطبقات بانها لا تستطيع القيام باي شيء . وبأن زمام الامور في يد الجماهير .. ويتم هذا حينما تقوم الثورة بواجباتها اتجاه الجماهير مع الفئات التقدمية ـ بالتدريب ـ والتسليح ـ ودرس الواقع ـ والبدء بتغيير هذا الواقع ـ صورة النظام ـ بواقع يعبر عن صورة الثورة ...

ويضيف متحدثا عن الحزب البروليتاري .« ان بناء الحزب البروليتاري الطبقي ـ نابع من وجود البروليتاريه ، ومن الدور التاريخي المكرس لها ، والمرتبط بوجودها ونموها » .« ففي جو التحالف الطبقي تكون هنالك برامج طبقية مختلفة ويكون هنالك صراع الى جانب التحالف ـ وان نمو حزب البروليتاريا مرتبط في هذه الظروف بالمحافظة على تماسك الجبهة ـ واستمرارها ، وعلى حزب الطبقة الاكثر ثورية ان يكون العامل الفعال في الجبهة ـ وان ينمو من خلال العمل فيها ـ ومعها » .

« وربما هناك من يسأل . هل يستطيع حزب البروليتاريه ان ينمو ضمن حركة وطنية ثورية تقودها البورجوازية الوطنية مثلا » .

ويجيب علوش « انه يستطيع ولكن لا بد متصادم مع قيادة الحركة الوطنية قبل تحقيق مهمات حركة التحرر الوطني او بعد ذلك .. لذلك يجب الاستعداد للصراع المقبل . وان القيادة اذا كانت بيد البورجوازية الصغيرة . فان امكانيات نمو الحزب تكون اكثر واكبر لان البورجوازية الصغيرة في البلدان المتخلفة ليست على تناقض حاسم مع البروليتارية » .

« وهناك احتمال ان تتحول « حركة التحرر الوطني » الى حركة البروليتارية ـ والفلاحين ـ وكما حصل في كوبا ـ ويحدث هذا عندما تكون الطبقة القائدة في حاجة لاتخاذ مواقف اكثر جذرية.. وعندما تكون الفئة القائدة من البورجوازية الصغيرة مؤمنة بشعبها ـ وايضا عندما تكون . جماهير الشعب مستعدة للتجاوب ـ والنضال»

« وان الاشكال التي تواجه حزب البروليتاريه في البلدان المتخلفة هي : انه حزب طبقة جنينيه لم توجد بعد او هي في طورالتكوين وان مادته ستتكون من الجماهير شبه البروليتاريه ، ومن البورجوازية الرثة ، المثقفين الثوريين . وانه مطالب بتحقيق مهمات طبقات غير طبقته » ..

ان قضية بناء الحزب البروليتاري، قضية قديمة ، فلماذا لم يحدد ناجي موقفه من الاحزاب الشيوعية التي تدعي بانها تمثل البروليتاريه ـ وانها احزاب البروليتاريه .. وايضا لقد جاء حول هذا الموضوع بشكل عرضي وسريع ـ علما ان هذا الموضوع هو الموضوع الحساس في هذه الفترة ..

ان العوامل الموضوعية التي تساعد في تكوين هذا الحزب حسب اعتقاد ناجي هي : « الحركة الثورية الوطنية » « المصنع الذي سيخلق جماهير الطبقة العاملة وينظمها » ، « ويرفع مستوى وعيها الطبقي» كيف سيتم هذا ؟..

ان المشكلة الحساسة اليوم هي المشكلة القومية ـ ومشكلة الاحساس بالخطر القومي والاحساس بالوعي القومي الذي سيولد حركة بروليتارية من خلال العمل الثوري القائم ـ ولكن لماذا فشلت الاحزاب الشيوعية ؟.. كل ذلك لا يجيب عليه ناجي ـ ولا يطرحه حتى .. ومن المعتقد ان السبب الرئيسي لفشل هذه الاحزاب هو في عدم اخذها المشكلة القومية بعين الاعتبار . بالاضافة الى ان البنية الطبقية للحزب هي التي تحدد الابعاد السياسية لخطه النظري .

ان الاحزاب التي تدعي انها تمثل مصالح البروليتاريه . لم تدرس الواقع العربي ـ وعلى ضوء ذلك تحدد الطبقات التي يجب التوجه لها .. لذلك فقد انطلقت هذه الاحزاب وكما يقول الياس مرقص (1)من حيث انتهى لينين ، « فقد اخذوا الوضع العربي على ضوء الدراسات التي حلل بها لينين الوضع في الاتحاد السوفياتي قبل الثورة ».

وفي النهاية فقد التقت نظرة هذه الاحزاب بالنسبة للقضية القومية مع النظرة الامبريالية « الكوسموبوليتيه » التي تقول بان « الرابطة القومية لم تعد على الشعوب الا بالحروب والدمار » ..

وفي الفصل الاخير يتحدث ناجي عن قضايا الثورة الاساسية . ويطالب بمناقشتها ، وتحديد موقف منها ـ ويضيف ان اهم هذه القضايا هي :

١ ـ انتهاج خط سياسي

٢ ـ الجبهة الوطنية ـ الوحدة الوطنية..

٣ ـ العلاقات مع الجماهير ..

ـ وعن الخط السليم يقول :

١ ـ « تحديد القضية تحديدا واضحا، وتحديد القوى القادرةعلى القيام بالعمل الثوري ـ وتحديد دور كل قوة من هذه القوى ـ وطبيعة العلاقات بينها في مرحلة تاريخية معينة » ..

٢ ـ « تحديد خطة العمل . ويعني بذلك وضع برنامج سياسي ـ عسكري من اجل التنظيم ، والتدريب والتسليح لقوى الجماهير » ..

٣ ـ « تحديد العدو ـ تكوينه العسكري ـ نقاط القوة ـ ونقاط الضعف ـ وتحديد القوى المساندة له » ..

٤ ـ « ان يكون العمل العسكري خاضعا للخط السياسي ومعبرا عنه واعتبار الحرب الشعبية هي الطريق الوحيد للخلاص » ..

٥ ـ « التزام خط استراتيجي ـ وتكتيكي يضمن تقدم الثورة مجنبا اياها ـ الانجرار الى معارك جانبية او الى مغامرات من جراء الاستخفاف بالعدو ـ هيمنة بعض الافكار العسكرية النظامية ـ سيطرة الاتجاهات المحافظة ، وسيطرة النزوات شبه الثورية التي لا تقوم على دراسة الوقائع . ولا يتحقق كل ذلك الا بواسطة تنظيم سليم كفيل بان يمنع اية انحرافات يمكن ان تحصل » .

ب ـ وحول موضوع الجبهة الوطنية ـ الوحدةالوطنية » يقول :

« لا زالت الثورة الفلسطينية تعاني من مشكلة تعدد المنظمات، وان هذا التعدد يخلق للثورة مشاكل اهمها ـ تفتيت قوى الشعب الفلسطيني ـ واشاعة البلبلة ، الاضطراب في حقوق الجماهير الفلسطينية ـ خاصة والعربية عامه لان كل منظمة تسعى لتبرير نفسها ـ وفي ذلك تتاح الفرص لكل القوى صاحبة العلاقة بالتدخل عن طريق الحاجة الى الدعم والمساندة » .

والتعدد بنظر ناجي يعود الى ما يلي :

« المطامح ـ والمصالح الذاتية » « ضيق الافق السياسي . ويتمثل في العجز عن الاحاطة بالابعاد الحقيقية للحركة الوطنية ـ والعجز عن وعي التناقضات الاساسية والثانوية وفي التركيز على الذات . وتجاهل القوى الثانية » ..

« والجبهة الوطنية تعني لقاء طبقتين او اكثر في صراع من اجل تحقيق اهداف محددة ،او لقاء احزاب ومنظمات مختلفة في ظروف تاريخية معينة ـ والقيادة تبقى لقدرة اية طبقة من الطبقات على تسلمها . وذلك يتحدد بوعي هذه الطبقة ـ وبتنظيم قواها القادرة على القتال ، وبخبراتها السياسية »» ..

مواصفات الجبهة الوطنية

« ان تكون جبهة تضم كل الذين لهم مصلحة في محاربة الاحتلال الصهيوني ، وان تضمن لكل قوة من هذه القوى امكانيات النمو والاستقلال التنظيمي وحرية المناقشة والتعبير والرأي . وان تكون جبهة تقدمية بتمثيلها للقوى النامية في المجتمع ـ ومحاربتها لقوى التخلف ضمن برنامجها » .

وعن العلاقات مع الجماهير يخلص الى القول :

« الثورة الفلسطينية جزء من الثورة العربية ـ وطليعتها ـ ولكن هذه الثورة ما حقيقة علاقاتها بالانظمة العربية ـ وبالجماهير »؟.

« ان الثورة كانت فيما مضى بحاجة لتهدئة الامور ـ وتجميد الخلافات ـ مهما كانت لتتاح لها فرصة اكبر للنمو ـ والاستعداد ـ ولذلك كانت مستعدة لقبول السياسات العربية كما هي .. وغير مستعدة للمواجهة الا حينما تصبح السياسات خطرا مباشرا على

---

(1) ـ نظرية الحزب عند لينين ، والموقف العربي الراهن ، الياس مرقص ـ دار الحقيقة ..

الثورة ـ والثورة لا يمكن ان تنجر الى معارك جانبية » .

وهذا يطرح ما يلي :

« ضرورة ان تكون المناطق المحيطة بفلسطين الاردن ـ سوريا ـ لبنان ـ بالذات مناطق تملك الثورة حريتها الكاملة في التحرك فيها » ..

« وهذا مما يجعل الثورة في تلاحم مع الجماهير ويجعل امكانيات النمو اكثر واقوى ـ وايضا ان العلاقات مع الجماهير لا زالت تتحكم بها العفوية ـ ويسودها الارتجال ـ لذلك يجب تحديد برنامج ـ ومبادىء واسس العلاقات مع الجماهير » والانطلاق في ذلك كما يلي:

« التحالف بين الثورة الفلسطينية ـ والحركات الوطنية والالتحام بالجماهير العربية ضرورة اساسية لانتصار الثورة ـ مع بلورة الموقف السياسي وتحديد مضمونه مع محاربة الاتجاهات الاقليمية التي لا بد من ان تتطور كلما هددت الحرب مصالح طبقات معينة » .

ان المناضل علوش في كتابه يطرح موضوعات جيدة ـ ولكنه في هذه الموضوعات لم يحدد الجزئيات والمختلف عليها ـ بل جاء على كل المواضيع وبشكل عام ـ وايضا الاختلاف بينه ـ « او بين نظرية «فتح» « وبين التنظيمات الثانية في ان « فتح » وهذا ما يطرحه ناجي ايضا » قوله ان الحركة الوطنية في الوقت الحاضر ليس من توجه اشتراكي لها ، وان التنظيمات الثانية تقول بأن تحديد المضمون التحرري ـ لا ينفصل عن تحديد المضمون الاجتماعي ».

وكان الاجدر وفي هذه الفترة بالذات تحديد الاتفاق حول الجزئيات ـ او الاساليب التي بواسطتها سنصل الى تحقيق الاستراتيجية ولن يتم هذا الا ضمن دراسةماضي القضية ـ والظروف المحيطة بالقضية عربيا ودوليا .مع دراسة الواقع العربي ـ وعلى ضوء دراسة التاريخ السابق للقضية ، نستطيع ان تحدد آفاق المستقبل ..

والملاحظة المهمة التي يمكن الاشارة اليها في ان المناضل علوش لم يحدد الدول التي تحكمها طبقات تقدمية والدول التي تحكمها طبقات رجعية ـ وبالاحرى لم يحدد الدول المستعدة للقتال وغير المستعدة ، اذ انه بطلب من جميع الدول المحاذية لخط التماس ان تقوم بواجباتها ، وهو يعرف جيدا ان القوى الحاكمة في لبنان ليست مستعدة للقيام بواجباتها تجاه القضية المصيرية من الناحية العسكرية لانها مرتبطة بشكل غير مباشر مع الاستعمار ـ والى حد ما ينطبق هذا القول على الحكومة الاردنية ـ مع الفارق الكبير هناك بين الحكومة من جهة ـ وبين الجيش والشعب من جهة اللذين يناضلان الى حد ما بالرغم من ضعف القوى اليسارية هناك الى جانب حركة المقاومة ـ ويتحملان المآسي التي تنتج من ويلات الحروب، ولانهما ارتضيا العيشة الكريمة الشريفة ..

ان كتاب علوش يبقى خطوة الى الامام ، والمطلوب مزيد منالحوار ـ ومزيد من المناقشاتلبلورة الطريق الثوري السليم نحو وحدة وطنية فلسطينية موحدة ـ وجبهة عربية مقاتلة .

فرحان صالح

كانت السماء زرقاء

رواية لاسماعيل فهد اسماعيل

اذا كان التكنيك الروائي عند مارسيل بروست في روايتهالعظيمة « البحث عن الزمن الضائع » قد اعتمد على اساسين هما الزمن الذي يتفاعل من خلال كونه عنصرا مدمرا مع الذكرى التي يسترجعها الكاتب من الماضي ، لتتداعى على شكل حدث جديد في الحاضر او المستقبل، فان ذلك النهج الذي انتهجه بروست لم يات الا نتيجة لعوامل اساسية في تكوينه النفسي ، والتجربة كانت ، بالاساس ، مخاضا لحياة بروست التي يتفاعل فيها الحس والموضوع بمكانية فان بروست يرنو منذ بدايته لتكون ارضية لكتاباته بتلاحم فيها الزمن بالذكرى ، فالتجربة ـ اذا ـ تجربة معاشة وصادقة ، وهذا ما لم نقراه في شخصية الاستاذ اسماعيل فهد اسماعيل وحياته العامة والخاصة حيث تسنى لي ان التقيه كثيرا على اريكة خشبية في مقهى ما في « باب الزبير » ، ولقد دهشت منذ البدء ،في المقدمة التي كتبها للرواية الاستاذ الشاعر صلاح عبدالصبور حينما كان يوحي ، ويفرض الايحاء بالسطور الاولى .. اننا لا بد قارئون عملا جديدا يتجاوز الآفاق التقليدية الى آفاق جديدة ، وانها احدى ثلاث روايات يشير اليها الاستاذ عبدالصبور باعتبارها ظاهرة مميزة لادب القرن العشرين .. او لعلها في ظنه هي « القرن العشرون » الذيما وجده الا عند مارسيل بروست من قبل ، ووجده الان في هذهالرواية. ولئن كان في الرواية شيء من هذه العلاقة باضلاعها الاربعة والتي يحددها الاستاذ عبدالصبور كما تتجلى واضحة في اعمال بروست بالزمن .. والاحساس بالمجتمع والتاريخ ، والرؤية الواسعة المستعرضة التي تتناول عدة من الاشخاص والذكرى ، فان تلك العلاقة تنحسر سلبا وتتحدد ايجابا في رواية « كانت السماء زرقاء » وليس كما جاءت التجربة مكتملة بعدها الرابع في رواية البحث عن الزمن الضائع . ولكن ، ليس شك ، ان في رواية الاستاذ اسماعيل فهد اسماعيل نقلات فنية محكمة من الماضي الى الحاضر ، حيث كان الكاتب يتوسل لتكثيف رؤاه بلغة شاعرية وجمل ذات وقع حاد تهز النفس الشاعرة بسرعة ...

ولعل في هذا سر انتصار الاساتذة عبدالوهاب البياتي وصلاح عبدالصبور وعبدالرحمن الابنودي للرواية باعتبارها احدى ملامح التحول الكبيرة الواضحة .. التحول ليس عن الاسس التقليدية حسب، وانما هو تحول ، كما ارى ، في الاسلوب الى لغة ذات ايقاع شعري .. وعدد قليل من الكلمات دونما تبذير او اسراف ، وتلك طريقة متقدمة فنيا وموضوعيا لعل الكاتب الكبير نجيب محفوظ هو الفاتح المتقدم لمثل هذا النوع المتطور من الرواية المعاصرة .

ولئن كانت الرواية الحديثة (مغامرة دائمة .. واكتشافا يتجدد ... وبحثا لا ينقطع عن المنهج والاسلوب) فان ذلك يعني بالضرورة زوال عهد الدراسة الشخصية القريبة ، وابعادها الروائيةالتقليدية كالحبكة والحل ووصف ظاهر الشخصيات باساليب انيقة ساحرة ، وفي « كانت السماء زرقاء » نجد ـ دون عناء ـ تلك المفاجأة التيتشده البصر لرواية عراقية جديدة هي ـ بلا شك ـ مغامرة فريدة للخروج بالتاليف الروائي العراقي من دائرة التهيب والتردد والخوف والشح الى العمل الجريء .. والعطاء المجدي .. ومحاولة للخروج من وطأة القصة القصيرة وفيضانها الذي ما زال يغور ويزداد لما في القصة القصيرة من سهولة في التكوين والنشر . اما سر دهشة الاستاذصلاح عبدالصبور فمرده الى ان هذه الرواية قدمت (من اقصى المشرق العربي ، حيث لا تقاليد لفن الرواية » والحقيقة اننا لم ندهش للرواية قدر دهشتنا لقولة الاستاذ الفاضل ان لا تقاليد لفن الرواية في اقصى الشرق ، ذلك ، لان الرواية وان كانت تعاني هنا من ازمة حادة الا ان معظم كتاب القصة القصيرة من جيل الخمسينات ابتداء ، كانوا ، وما يزالون ، مشحونين بتراث روائي عراقي ، ويكفي ان نذكر باسماء مثل الاساتذة محمود عبدالوهاب ومهدي عيسى الصقرومحمود الظاهر ومحمد خضير ، الا ان طبيعة الظرف اولا وطبيعة ما يستغرقه العمل الروائي من وقت وجهد وانفاق جعل الرواية العراقية تشح وتنكمش .. فصار النشر مغامرة الا ان المتفحص للامور يستطيع ، بلا جهد ، ان يشير بصدق لهؤلاء الذين سبقوا جيل الاستاذ اسماعيل فهد اسماعيل بالذات . ليس ثمة عقم اذن .. انما هو جانب من

الازمة .

في مقدمة الاستاذ صلاح عبدالصبور اشارة موحية لظاهرة التحول الكبير في منهج الروائي العظيم نجيب محفوظ .. وهذه الاشارة بحد ذاتها تشبه ايماء فنيا جميلا يشوق القارىء لمعرفة الرواية على انها عمل مشابه لادب نجيب محفوظ ، والحق انني وجدت ذلك فعلا، اذ ان ثمة خطين يتوازيان عموديا وافقيا بين روايتي « الطريق » و« كانت السماء زرقاء » سواء في المحتوى الفلسفي لكلتيهما وما يطرحه هذا المحتوى من ابعاد ودلالات ورؤى ، ام في الرفض والانفلات عن الماضي بكل عفنه ووسخه الى حاضر مضيء ومستقبل فسيح، فالانسان المعاصر مشدود الى كل لحظة من لحظات ماضيه ، وهو في تطلعه لعالم جديد وارض جديدة مرتبط حتما بكل خيط من خيوط الماضي ولحظاته المأزومة .. ومن خلال ذلك يشرئب الانسان المهموم من زوايا الجنس والعبث والضياع والعدم والجريمة لاكتشاف طريق جديدة تقوده الى عالمه الضائع الذي يناضل من اجل الوصول اليه .. فكما وجد « صابر » نفسه يبحث عن ابيه .. عن عالمه الضائع في طريق موحشة طويلة وشاقة بحثا عن ذلك (المجهول العظيم) كما يسميه الاستاذ لويس عوض ، نجد البطل في رواية « كانت السماء زرقاء » هاربا ايضا ، من ابن والى اين ولماذا ؟ نفس الفراغ . . ونفس الرحلة المشوبة بالعذاب والمرارة ، اما المعاناة .. فقيم متهرئة يجب استبدالها بقيم اخرى ، وارض يجب تغييرها .

هذه الرواية ترصد احداث زمن ينمو بنمو الشخصيات ، او ان الشخصيات تنمو بنموه .. البطل فيها هارب .. وفلسفته في الهروب اساسها الرفض لواقع تعيس ... رفضه لزوجته التي تحبل وتمارس الجنس ، الساذجة التي تنزوي كعلامة للانغلاق والمحدودية، هذه العلامة هي التي تضع البطل في بداية الطريق حيث يتساءل عند الخطوة الاولى : كيف يحتمل العيش بكل ما فيه من نكد مع هذه المرأة الجاهلة ، انه اذا ارتضى الصمت فتلك مساومة بلا شك على حريته .. وهو اول قاتلي حريته ، ان ادراك المأساة بكل ابعادها وعمقها تضع البطل امام طريقين اما ان يساوم على حساب انسانيته وحريته واما ان تكون مواجهة صريحة بحيث يعلن رفضه الحازم لهذه (الزيجة) بكل جفافها وعمقها ويثور على هذا السكون القاحل ، ليستطيع ، بعد ذلك ، ان يستوعب حدوده كانسان ضمن زمن جديد تخلقه المواجهة المباشرة ما دامت هذه المواجهة هي التعبير الاساسي عن صدقه وضياعه ولذلك .. راح يبحث عن بديل فوجده في صاحبة الثوب الازرق ، ولم يكن البديل « ذاتا » وحسب ، وانما تداخل فيه الموضوع والذات بعلاقة ديالكتيكية ذات نسج جميل . ان البطل يرسم نفسه بمهارة، فهو يصرخ : اذا لم افقد زوجتي فسوف افقد انسانيتي ، ومن خلال هذه الصرخة تتراقص علامات استفهام كثيرة : هل ان البطل مغرور .. أم هو بائس ، هل هو متمرد ام هارب حقا ؟ ان وجه القضية في الاستبدال هو اكتشاف الطريق الذي هو اكتشاف لحياة البطل والمجتمع الذي يعيش فيه ، وهو بلا شك ، المحور الفلسفي الذي يعزّي المجتمع تعرية تامة . ان الناحية الثقافية في المرأة ذات الثوب الازرق هي التي تستولي على اهتمامه ، وهذا هو الطرف الاخر للخيط الذي يشد البطل بهذه الفتاة المتعلمة التي تقرأ وتحادث وتجادل وتفضب.. الخيط الذي يشده اليها حتى العمق .. حتى ولادة الرؤيا الجديدة ، لكن حياة البطل او بالحري مغامرته .. وغرامه ايضا في البحث عن ذلك (المجهول الاعظم) جعله يرفض واقعه الجديد بعنف وتصميم ..وينساق في رحلة ضبابية رهيبة لتغيير الارض والتجربة .. « قررت انهاء كل شيء .. تحطيم كل ما له صلة بي .. عليّ ان ابدأ بارض جديدة»، اما لماذا .. فتلك احجية او لغز ماوقفت له على حل مقنع ، اما قول البطل بانه (انسان خاص) فان في ذلك ،كما ارى ، شيئا من الافتعال لتبرير الحدث ليس غير . وبهذه الطريقة تبدأ رحلته المأزومة مع نفر من السياسيين الهاربين الى ايران .. اما هو فقد كان هربه(جسديا) فقط .. ذلك لان العالم (المثالي) الذي يحلم به ليس موجودا على مرمى خطوات من مدينة السيبة او عبادان ، لقد كان هربه (عبثا)وكان واقعه مع هؤلاء الهاربين (ماساويا) اذا ما نظرنا له بمنظار الفترة الزمنية المحددة في (الملاحظة الهامة) التي تتصدر الرواية والتي جاء فيها (ان هذه الرواية كتبت عام ١٩٦٥ .. الخ) ، وفي تفسير ذلك يقول الاستاذ ياسين النصير في معرض نقده للرواية في مجلة « الف باء » :« ان هرب البطل مع نفر من السياسيين خارج العراق ـ الى ايران ـ لم يكن الا هربا جسديا فقط ، لم يحقق فيه اية صلة بين واقعه النفسي المتمرد .. وواقعه السياسي المتمزق » .ولان الهرب الجسدي لا يحسم قضية البطل الاساسية فقد تورط مع الآخرين الهاربين في رحلة هؤلاء من اجل الخلاص وفرصة الامل حتى ولو واجهوا رصاص رجال الكمارك وشرطة الحدود الذين زرعوا فيهم الرعب والخوف .. فاصيب احدهم وهو عسكري هارب ، فوجد البطل نفسه وجها لوجه ازاء رجل جريح يمقته ويسهر عليه في آن واحد . هذا الحدث الساذج كما يقول الاستاذ النصير « جعل الوعي الفوري والاحساس الشخصي لدى البطل يتساقط ويتحول الى وعي جماعي واحساس عام انساني ... حيث اصبح وعيه اكثر ايجابية بعد ان خلقت امامه جملة احباطات صنعها له الآخرون » . ان هذه الاحباطات وان كانت احباطات مألوفة .. الا انها تبعث على الحيرة ، فكل شيء يتجرد .. الاشياء والاشخاص والاحداث كلها تتجرد بشكل يثير الدهشة ، فردود الفعل لدى البطل تجاه هذه المعاناة لا تجري وفقا للقوانين المألوفة المبتذلة للحياة الدارجة وذهنية البطل تتوتر منذ البداية وتتازم وفق حالة معينة من الرعب تنطلق من ذاته هو ، ان الرعب لا ينمو فيه تدريجيا ولا يتوتر وفق لحظات او لسعات معينة كما هو في شخصية الضابط التقليدية ، فالكاتب يجتهد ، بلا شك ، من اجل ان يرسم صورة لبطل غير مألوف في عالم مألوف ، فهذا الهارب الذي يحارب الحياة بالمغامرة والانتماء بالتجرد وفق حالة نفسية مفروضة من الخارج ، يجعلنا وان كنا مقتنعين موضوعيا ، ان تكوين البطل حالة استثنائية الا اننا ، بنفس الوقت ، نحس معه برجفة القلق واللذة التي يوحيها الصدم المفاجيء لتجربة البطل الخاصة واستثارة (الشرط الانساني) في انفسنا قبل ان يثار في ذات البطل نفسها ، لكن الكاتب عرف كيف ينقل بطله بسرعة نحو موقف ايجابي جديد بعد تحديد ابعاد المأساة ، ذلك لان الحالات الكاتب السياسية ووعيه الفلسفي أثار عنده في النهاية ذلك (الشرط الانساني) الذي وضع القارىء في النهاية امام تساؤل دقيق لتوازن الاحداث والاشياء والشخصيات ، تساؤل يضع الرؤيا وسط تزاحم من الاحداث المأزومة ويوحي بعلامة استفهام كبيرة ، هل هو فرار الجبل .. ام التحدي؟ اما الزمن لهذا التحدي او ذاك الفرار فقد كان سالب العلاقة بشخوص الرواية الآخرين .. الضابط والزوجة والعشيقة ، وقد كان الكاتب يأخذ شخصية البطل بلا حدود او حذر .. ان تداعي الاحداث والشخوص يفقد الكثير من جماليته ان لم يصحبه الوعي الموضوعي بكل ابعاده المكانية والزمانية .. ويتحول الى مجرد (فلاش باك)تقليدي ان صح التعبير . ان الزمن في هذه الرواية كان يجب ان يكون الركيزة الاساسية التي تحرك كل شخوصها باعتبارهم مأزومين تاريخيا في حالة راهنة محددة .. ولا شك ان البعد الزمني التاريخي هو الذي يثير في القارىء عصبيته الفكرية والسياسية تجاه الحدث .. ولا يكفي مطلقا ان يغفل الكاتب زمن الحدث الروائي ويشير اليه (بملاحظة هامة) في صفحة الغلاف الثاني .

يقول الاستاذ الناقد ياسين النصير وهو واحد ممن يعول عليهم

في تقييم النتاج العراقي المعاصر :« والحقيقة ان الرواية كلهاحالت الشخصيات الاخرى ـ الضابط ـ الزوجة ـ العشيقة ـ الى مجرد شخصيات لا ابعاد متكاملة لها الا من خلاله هو . ماذا أعدت لنفسية الضابط المصاب .. الا يملك احداثا ماضية تستوجب حضورها ؟ الم تمتلك الزوجة المستلمة تجربتها الخاصة بها ؟» ان منطق التداعي الذي كان سمة مميزة للرواية كان يجب ان يرصد البعد الزمني لشخوص الرواية الآخرين بطريقة (جدل حبلي الماضي والحاضر في حبل واحد) ومن شان هذه (الرؤية الواسعة المستعرضة) ان تحفز في القارىء شتى انواع التوتر والرؤى لا ان يظل متفرجا على عمل متفاوت الوضوح . ان الزمن اعتبره مارسيل بروست واحدة من دعامتين لكتاباته كان هو الذي يحدد رؤاه الواسعة .

والحدث ، مهما بعد ، لن يذهب سدى ،ولن يسحب عليه النسيان اذياله وانما يختزن فتتفاعل الذكرى بالزمن لبعث الحدث وتطويره ،من خلال هذه العلاقة وجد البطل البروستي المجيد الذي ما زلنا نبحث عنه في رواياتنا العربية الجديدة .. رواية « القرن العشرين » التي بدات تولد .

العراق ـ البصرة — يعرب محمود السعيدي

تلويحة الايدي المتعبة

شعر : ممدوح عدوان

منشورات اتحاد كتاب العرب ـ دمشق

يتوقف اختيار الطريقة في عملية التعليم على طبيعة الموضوع المطروح ـ صعبة ، سهلة ـ وبالتالي يتطلب استعمال التركيب ـ الانتقال من الجزء الى الكل ـ او التحليل ـ الانتقال من الكل الى الجزء ـ تماما كما في عملية تناول اي موضوع خاص او عام يعتمد الوحدة الصغيرة او الوحدة الكبيرة ، يستند على مرتكز عقلي او عاطفي.

وليس انتهاجي طريق التركيب في هذا العمل الادبي الا تمشيامع طبيعة النتاج المناقش « فتلويحة الايدي المتعبة » ديوان يضم بين جناحيه سبعا وعشرين قصيدة توافدت بصورة متنامية لتشكل كلا كان للذوق والعقل فيه اليد الطولى في عملية البناء .

فقصيدة « مصطفى البدوي » يصور فيها شريطا من المناظر الفزيولوجية والنفسية للشاعر مصطفى البدوي ، فحينا يصور الاضطراب ما بين الحركة الصاخبة الخارجية والحركة الصاخبة الداخلية ، ما بين ضجيجين ، ضجيج مبعثه الشارع والمقهى ،وضجيج مبعثه القلب الراني وبشوق الى الشعر والنساء، وحينا يرصدبحساسية وشفافية ذائقة الكاميرا الشعرية المرهفة انفاس الصمت العابقة بزفير مرارة الغربة ونجاوي العمق الثاني للانسان الرابضة كتلا من الالم يتجاوزها مصطفى البدوي في عملية هروب مفضوحة الى دنان الخمرة يعب منها وبلا هوادة يسقط كل ما في نفسه على الاشياء فيرى في القبح جمالا وفي العتق جدة وفي الاعمدة نساء ، ناسيا او متناسيا آنية تلك الرؤية .

وحده كان مع الضجة في المقهى ككرسي قديم
وحده كان وعيناه على الواجهة البيضاء في اثر ذبابة
ساهما والشوق يدعوه الى صوت ربابه
ضجة الشارع تاتيه ... ضجيج من مذيع
ومن القلب ضجيج
حين تمضي قدم في اثر اخرى
تشرق الحانة واحه
فاذا النادل أقبل
واذا ما ارتجف الوجه مع النظرة في المرآة هلل
يرتخي الهم الذي شد عروقه
والذي ملح في الغربة والرعب جراحه
ومع الكاس الاخيرة .. يصبح العالم في عينيه اجمل
الى ان يقول :
عندما يدفعه النادل كي لا يتقيا
يحضن الشارع نشوان كما يحضن مرفا
« حرقة الصدر اللعينة كيف تطفا »
واذا الشارع انثى تتلوى في ملاءة
واذا أعمدة الشارع ارتال نساء

وتقرا في قصيدة « الزحام » بصمات اصابع الانفعال نافرة على وجه مد الجوع والحزن الطاغي وقافلة المسافرين تغذ السير في القيظ تشق اسداف الدرب في وقفة اصرار يائسة في وجه القدر ولكن ممدوحا لم يستطع حتى للحظة واحدة ان يزيح الستار عن الكنز الخبيىء في مغاور الفد في لحظة اشراق او نبوءة .

ولدت ذات مرة
ولم اكن احب ان اعود
لكنهم داروا علي
اخرجوني من جدار الخاصرة
وعندما فاجاني الضوء .. بكيت .. عذبتني الذاكرة
سرنا في درب واحد
ورغيف في يد كل مسافر
سرنا في القيظ ، تيبست الاحزان
ورفضنا ان ناكل هذا الخبز
طاردنا الجوع على الرمضاء
وركضنا خلف سرابه
نشف الريق ولم نياس
فمشينا يوما .. وركضنا يوما .. وترنحنا .. وتلوينا ايام
الى ان يقول :
الموتى ملأوا اجساد الاحياء

ومن الاضلاع يشب الحزن « حزن عفن كروائح افواه الموتى »
ونكر على الخبز اليابس : لكن تتساقط في الرمل الاسنان
يا رمل بماذا يحيا الانسان ؟

وتاتي قصيدة « يوميات الخطيئة » احدى قصائد الديوان الموفقة تبين تجربة الشاعر في الحياة والتنقيب عن القيم والمبادىء والضرورات عن الخبز والحب وسط خضم زاخر بالمتناقضات والنقائص . وكانت لفتة بارعة وذكية اتخاذه من الخطيئة رمزا عربيا يترجم من خلاله كل ما يريد قوله . وليست عملية ادراج الشخصية القديمة والاسطورة المتفشيتين في شعر القالبية العظمى من شعراء هذا العصر الا ظاهرة صحة وعطاء ، بشرط توفر الحذر والدقة الشديدين في الاستعمال وضمن حدود المنطق والمعقول .

حين يضيع الخبز بين الله والناس
وحينما تنقر في القلب مناقير الصغار

وتشتكي من جوعهـا القاسي
تخاف ان تلقي بـك الايام والطوى
من كف نخاس لنخـاس
الى ان يقـول :
كنت ارى وجهي على عيونهم سؤال
اطوي على عري العظام الجلد
اذ اخفي عليهـا السر
اخفي عليها ما لديّ من جراح القهـر
ومرة في زحمة الطريق ...
عيناه نادتا عليّ ... عيناه عرّتا الذي اخفيته ..
وهكذا اقتربت منه ابتغي الهدايـة
حاذيته .. عانقته .. طعنته .. وعدت للبداية

واما « تلويحة الايدي المتعبة » التي يصور فيها الشاعـر ممدوح عدوان لقاء خاطفا مـع « القنيطرة » فتمثل الشوق الجارف الى الطبيعة الساحرة المفناج بنوع من الوجدانية السائبة التي ارخت العنان لشاعرية ممدوح فراحت تجيل الطرف تصطاد الاشياء الحزينة والمشاهد المروعة تجسدهـا حرقـة ولوعـة تسري في اوصال النص . دون ان نقرأ معنى واحدا تسطع منه الجده ، وهذا لا ينفي دم الاصالة والصدق النابض في كل خلجة مفردة او طرفـة عين تركيب .

تنهدت الدروب وقد رأت دربي
يصد على ضفاف النهـر
وانت تكويـن الرمـل
تختلسين نحوي نظرة خجلي بلا مقل
أتيت ، سمعت رقرقة السواقي صرخة حمراء كالشعل
ففاض الريق وسط فمي .. ظمئت ، تشققت شفتـي ، لحست يباسها .. ومضيت محنيا لنير الدهر غضضت الطرف في صمت .. كأني لا أرى الايـدي تلـوح لـي.

وبالقاء نظرة فاحصة الى « الداخل. الخارج » (١) اللذين يكونان القصيدة المخلوق في ديوان الشاعر ممدوح عدوان نجد ان الخارج يعتمد المفردة الاليفة المطواعة ، والتركيب الطليـق المترقرق كهودج عشـق قديم والداخل يعتمد المنطلق الانساني المكثف حينا والممدد حينا اخر المكشوف مرة والمغلق اخرى ، تتشابك كل هذه الجزئيات وتتداخل لتعطي صوتـا شعريـا متميزا ومتفردا في الطعم واللون والرائحة .

حلب — **محمود علي السعيد**

---

١ ـ الداخل والخارج : الشكل والمضمون .

اللامنتمي

دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين

ما بعد اللامنتمي

«فلسفة المستقبل»

اشهر واعمق كتابين للكاتب الانكليـزي المشهور

كولـن ويلسون

صدرا فـي طبعتين جديدتين انيقتين

منشورات دار الآداب